الفصل الأول:

المعرفة في القرآن الكريم

أولاً: تعريف المعرفة:

أورد التهانويّ جملة تعريفات للمعرفة، يمكن تلخيصها فيما يأتي: العلم بمعنى الإدراك مطلقاً، تصوّراً كان أم تصديقاً. وإدراك البسيط تصوّراً للماهيّة، أو تصديقاً بأحوالها. وإدراك المركب، سواء كان تصوّراً أم تصديقاً. وإدراك الجزئيّ، والكلي مفهوماً كان أم حكماً. وإدراك الجزئيّ عن دليل. وإدراك بعد جهل.

١ - التعريف اللغويّ للمعرفة:

قال ابن فارس: عرف أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على تتابع الشيء، متصلاً بعضه ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة. والمعرفة ضدّ النكرة، وتُجمع على معارف، ويأتي اللفظ في معرض المدح بِجَوْدَة الرأي، وحِدَّة الفطنة، وشدّة الذكاء.

٢ - التعريف الاصطلاحيّ في العرف:

كلّ اسم خصّ واحداً بعينه من جنسه، فهو معرفة؛ أي ما وُضع ليدلّ على شيء بعينه، كالمضمرات، والأعلام، والمبهمات، وما حُلِّي بالألف واللام. وهي أول فرض افترضه الله على خلقه بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالمراد المعرفة الإيمانيّة. وعند أهل الكلام والمنطق: المعرفة تقال للإدراك المسبوق بالعدم، ولثاني الإدراكين إذا تخللهما

عدم، وتقال لحصول صورة الشيء عند العقل، وللاعتقاد الجازم المطابق الثابت، ولإدراك الكليّ والمركّب.

٣- التعريف الاصطلاحي في الشرع:

ورد لفظ المعرفة في القرآن في أربعة وعشرين موضعاً، وتكرّر سبعاً وستين مرّة بصيغه، وأكثر ما جاء من هذه المادّة ما يدلّ على "المعرفة الحسيّة التي تقع على الصفة الظاهرة وتميّزها". قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]؛ أي يعرفونه ﷺ، بنعته وصفته بين غلمانهم، وضدّ المعرفة الإنكار، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩]. ولكن اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمّد: ٦] بمعنى طيّبها وزينها، وقيل: بيّنها وعرّفها، وعلى المعنى الثاني لا تخرج عن مدلولها اللغويّ. وبالتأمل في آيات "المعرفة"؛ نجد أن لها خصائص تميّزها في المعنى والاستعمالات اللغويّة. فهي ترد في القرآن على أنها إدراك مكتسب بدليل أو علامة، كقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقوله: "﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]. والسِّمة هي العلامة، وتكون الأدلّة ظاهرة على المعرفة، سواء أكانت عقليّة أم نقليّة، فهذه المعرفة علم عن دليل خبريّ أو سمعيّ، أمّا المعرفة عن أدلة عقليّة ففي قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، ويمكن ضمها إلى الإدراك الحسيّ، مع قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

ثانياً: طبيعة المعرفة:

١- مفهوم طبيعة المعرفة:

المعرفة صفة للحيّ، وهي علاقة تقوم بين ذات عارفة وموضوع معروف، فالمراد من "طبيعة المعرفة" تحديد تلك العلاقة وبيان عمليّة المعرفة، والعلاقة بين الإنسان وما يحيط به من خلال عناصر ثلاثة، هي: وجود عالم خارجيّ، وواقع من حوله، وجود ذهن خاصّ به "نفسه". وهذه العلاقة المعرفيّة، مرتبطة بغاية الوجود الإنسانيّ على وجه الأرض، وقضيّة بقائه، فالمعرفة إذن لازمة من لوازم الوجود، وتقوم هذه العلاقة في وعي الإنسان المميّز، وقد تتّخذ شكل الأفكار أو العقائد عند الإنسان، وما يهمنا هنا هو علاقة المعرفة بالوجود؟ وأيهما أسبق؛ الماهيّة أم الوجود؟ وإذا كانت مكتسبة فهل نعرف الماهيّة، أم نعرف الصور، أم المثال؟ ومن ثمة: فهل هو تعرّف الكليّات أم الجزئيات؟ وأين تكون هذه الكليّات؟ وما نوع وجودها؟ ثمّ ما أدوات كسب المعرفة؟ وكيف نكتسبها؟

٢- طبيعة المعرفة في القرآن الكريم:

مما سبق نقول: إنّ المعرفة في القرآن الكريم هي: المعلومات والمفاهيم اليقينيّة، والأحكام والمدركات والتصوّرات الجازمة التي نكوّنها، أو نتوصّل إليها عن شيء ما، نتيجة ما نتلقاه عن طريق الحسّ أو العقل، أو عن طريقهما جميعاً. وهي العلم اليقينيّ، الذي ينكشف فيه المعلوم؛ انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتّسع القلب لتقدير ذلك.

أ- أصل المعرفة:

كلّ شيء مَرَدُّه إلى الله سبحانه، إيجاداً وخلقاً وأمراً، كونيّاً أم شرعيّاً. والمعرفة مخلوقة لله تعالى، ونعمة منه، يَمُنّ بها على الإنسان بما خلق فيه من استعدادات لها؛ من فطرة تبحث عن الحقّ، وأدوات لتحصيل المعرفة؛ أي إنّ الله عزّ وجل جعل سنته تتكرّر؛ بحيث إذا نظر الإنسان أو إذا تحققت شروط معرفته حصلت له هذه المعرفة بتمام أركانها وشروطها. فالإنسان مدين لله في خلقه وتعليمه. ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فحصول المعرفة يكون بالنظر والعلم، فتوافر السبب، مع توافر شروطه وانتفاء موانعه يوفر المسبب، وإلا سقطت القوانين الكونيّة وفسدت حياة الناس، وما خالف نادراً لا يقاس عليه؛ لأنّ الأولى البقاء على الأصل، والكيس لا يقيس على الشاذ.

والخلاف حول حصول العلم بين الفرق الإسلاميّة منبثق من الاختلاف في فهم الآيات الكريمة التي تتحدّث عن أصل المعرفة الإنسانيّة؛ تلك المعرفة التي علّمها الله سبحانه لأوّل مخلوق من البشر وهو آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨]. وتحدّي الله للملائكة بما لم يعطوا، دلالة على امتياز آدم عليهم بزيادة علم، والامتحان دلالة على كرامة آدم، وجلالة الله وقدرته، وهذا يعني أنّ المعرفة متوقّفة على معلومات مسبقة، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة بوضوح ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] فالمنبع الرئيس للمعرفة المعلومات السابقة التي

رُكِبت في الإنسان الأوّل، وهي أصل المعرفة.

ب- المعرفة المكتسبة والضروريّة:

ممّا حاول العلماء طرحه عمّا تعلّمه آدم: هل لقّنه الله العلم كلّه أم أصول المعرفة؟ هل كانت طريقة تعليمه إياه بإلقاء العلم الضروريّ في نفسه مع خلق القدرة على النطق، ومن ثمّ تكون اللغة أو المعرفة تلقينيّة، أو تعليميّة، وما طريقة التعليم أو تكوين اللغة واستقاء المعرفة الأولى؟

- المعارف الأولى للإنسان الأول:

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]؛ فيها دلالة أنّ الله سبحانه علّم آدم اللغة الدالّة على حقائق الأشياء، أو صورها الذهنيّة المأخوذة عن وجودها. لأنّ الاسم من المفهومات التي يتوقّف تعقلها على تعقل مسمّاها؛ ولا يكون الاسم بلا مسمّى، فلا بدّ أن يُتصوّر المسمّى أوّلا، فإدراك الاسم متضمّناً لإدراك مسمّاه، وفهم المسميات من فهم المراد بأسمائها، فالأسماء لا تلقى إلا على مسميّات؛ سواء كانت عيناً قائمة بذاتها، أم صفة في غيرها، فالتسمية تطلق على صفات وخصائص ما؛ بحيث إذا ما ذكر الاسم تواردت صفاته وخصائصه تلقائيّاً.

والدَّلالة نوعان: لفظيّة؛ وغير اللفظيّة، وكل منهما ثلاثة أنواع: وضعيّة، وعقليّة، وطبيعيّة (عاديّة).

- المعارف البشريّة بعد المعارف الأصليّة:

لا يشترط في المعرفة المكتسبة أن تكون كلّها قائمة على الأدلّة المنطقيّة، وهذا لا يعني إبطال عمل العقل في المعرفة، ولكن الفطرة أعمّ من أن تتقيّد في تحصيلها

للمعرفة بالدليل المنطقيّ؛ المرتّب والمركّب من مقدمات منطقيّة، فقد تكون هذه الأدلّة على أوضح ما تكون، ومعَ ذلك ينكر الشخص معرفته بالحقيقة.

وللفطرة من الاستعدادات للتوجّه نحو الخير ما يعينها على إدراك الحقّ والميل نحوه، فلها منطقها الذي هو أعمّ من منطق العقل المقنّن. وهذا ما نلمحه في الأدلّة التي أقامها الله سبحانه وتعالى على وحدانيّته؛ حيث كانت على وجهين، الأولى: أدلّة كونيّة، تدرك بطريق النظر في الآفاق، وأدلة كونيّة تدرك بالنظر في الأنفس؛ إذ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصّلت: ٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، فجمع سبحانه بين نظر الأنفس إلى ذاتها وإلى الأدلّة الكونيّة في الخارج، ومن ثمّ فإنّ وجود الأدلّة غير كاف للمعرفة ما لم يحصل التوجّه من النفس نحو الإفادة من هذه الأدلّة لتحصيل العلم والمعرفة أو الإيمان، فمن طمس على بصيرته بالمعاصي وتعطّلت عنده أجهزة الاستقبال الفطريّة والاستعداد للانتفاع بالدليل والإفادة منه لا ينفع إقامة الأدلّة عليه، ولا يحصل عنده علم، سوى أن يكون حجّة عليه لا غير.

ولعلّ استعمال القرآن في كثير من آياته كلمة "لعل" في باب المعرفة يدلّ على أنّ "وجود الشروط الخارجيّة لاكتساب المعرفة قد لا يعني أن يتعلّم الإنسان بحكم الضرورة، وأن يصل إلى الحقيقة، فالمعرفة العقليّة التي يستطيع الإنسان اكتسابها تعتمد على قابليّة الاستقبال لها". ولكي نفهم مراتب حصول المعرفة كما وردت في القرآن علينا أن نقسّمها على حسب المراتب العامّة للهداية وإقامة الحجّة، أو مدارك الناس الدنيويّة، ومقامها السمع

والبصر والعقل، ثمّ يليه الهداية الثانية؛ ومردّها إلى الهدي الربانيّ. وهذه مقامات متصاعدة درجات يقابلها مقامات متنازلة دركات في من أضله الله.

فحصول العلم له علاقة بتوجّه النفس أو الإرادة، نحو الإفادة من الحقّ، وبالدليل الذي هو منّة من الله تعالى، فحصول المعرفة الأولى لإقامة الحجة لازم وقطعيّ، وحصول المعرفة الثانية للاهتداء لازم متعلّق بميل النفس نحوه، ثمّ حصول المعرفة الثالثة بزيادة الهدى والإيمان والتقوى لازم عن الثانية، وهو من عند الله لا دخل للإنسان به، إلا اتخاذ أسباب المعرفة الثانية، أمّا الأولى؛ فقدّر الله بأن منحه القدرة والإرادة، فكان مخيّراً، وفي الثالثة كانت مِنَّة وزيادة، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فهذا مقام المعرفة الأوّل، وهو بيان لا يستثنى فيها أحد إلا من رفع عنه القلم.

والعلوم الدنيويّة المقصد منها قسمان؛ الأول في الدنيا، ويحصل للمؤمن وللكافر باتخاذ أسباب الحصول عليه التي سخّرها الله للناس جميعاً، إلا أنّ للمؤمن زيادة فضل في الأجر الدنيويّ بالأخرويّ، والتوفيق أكثر إن اتخذ تلك الأسباب. أمّا المقصد الثاني وهو الأخرويّ فالكافر محروم منه، والمؤمن كلّما أدرك مقوّمات السير في الأرض زاد إيماناً، وارتفعت درجاته في الآخرة. وهذا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤].

والتمكّن من كلّ شيء لا يكون إلا بتوافر شرطين: القدرة والحكمة. والقدرة تكون في توافر الأسباب الماديّة الأولى من مواد وطاقات بشريّة، وقدرات أمنيّة لحماية المقدّرات، أمّا الحكمة فتكون بتوافر المعرفة والعلم،

وحسن استعمالها، والتسيير الجيد، والاستغلال الكامل. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

فالاستخلاف في الأرض له غاية تكمن في العبوديّة، بينما طبيعة المعرفة في المفهوم الفلسفيّ بشريّة ماديّة، وعلى ذلك فإنّ أعلى أنواع المعرفة في المفهوم القرآنيّ هو الإيمان بالله ويقابله الكفر؛ فالقرآن يتناول مسألة المعرفة مع القلب واللبّ والفؤاد أكثر من غيره؛ ليدلّ على أنّ المقصد ليس المعرفة العقليّة النظريّة البعيدة عن هدى الفطرة واستعداداتها.

ومن هنا نرى أنّ عمليّة البحث عن المعرفة تتعاون فيها وسائل الحسّ الظاهرة والباطنة، والأدوات التي تستخدمها الحواس، وموازين العقل الفطريّة والمكتسبة، ومعارفه السابقة التي اكتسبها بنفسه والتي تلقاها عن غيره مما اكتسبه الآخرون، يضاف إلى ذلك الوحي، فتكون المعارف ما بين فطريّ وضروريّ ونظريّ، والأوّل خُلق في الإنسان منذ ولادته لا تغيير لأصله، والثاني: ما يكون إدراك الشيء فيه ضروريّاً؛ بحيث يضطر إليه من غير نظر ولا استدلال، ويمثل القضايا الأوليّة، أمّا الثالث: ما يكون الإدراك فيه يحتاج إلى نظر واستدلال وإعمال الذهن، كالعلم بأنواع المعارف والعلوم، فالحسّ مثلاً يُشعر بلذع النار، فيُكوِّن ذلك لدى الإنسان خبرةً ما حول النار، وهكذا تتوارد التجارب في حياة الإنسان، ويكتسب منها معارف عن طريق الإحساس المباشر للظاهرة. وهذه الحواس هي بمثابة منافذ للفكر على العالم الماديّ المحسوس. ثمّ تنقل تلك المعارف إلى منطقة الإدراك الفكريّ، وتسجّل

الذاكرة ما تؤكّده الحواس بالتجربة، وبعد ذلك يبدأ الفكر عمله فيما سجّلته الحافظة من صور، كما يستفيد الفكر من المعارف السابقة لبناء فكره وتطويره.

والقرآن الكريم يقرّ بمعارف السابقين، ويدعو إلى إقامة وحدة لمعارف الوحي بين أتباع الرسل، وذلك بالاعتماد على أسلوبيّ التصديق والهيمنة، بأن يوافق كلّ معرفة لم يطرأ عليها تحريف أو انتحال، ثمّ الهيمنة عليها بما ورد فيه. فالمعرفة في أصلها طارئة مع حدوث أدواتها ووسائلها الداخليّة والخارجيّة، والإنسان أوتي استعداداً وقابليّة للعلم، لكن العلم صفة طارئة لا ذاتيّة فيه، بمعنى أنّ "العلم وإن كان صفة للإنسان؛ إلا أنه ليس عنصراً ذاتيّاً فيه، ولكنه معنى قائم بالعالِم."

ت- المعرفة القرآنيّة معرفة خصائص لا ماهيّة:

يرى بعض الباحثين أن الفلسفة مستوى من التعميم يحاول أن يردّ مفردات القيم السلوكيّة والمعارف والعلوم على اختلافها إلى قمّة واحدة، ومهمتها استخراج ما هو مضمر في أحكامنا واعتقاداتنا لننقلها من حالة الكمون إلى حالة العلن، ويظنّ البعض أنّ هذا التحديد لمعنى الفلسفة يقود إلى الزعم الصادق بأنّ للتفكير الفلسفيّ علاقة وثيقة بالدين، وأنّ الفلسفة نشأت في صورة نقدٍ فكريّ للمعتقدات الدينيّة والأخلاقيّة.

يرشدنا القرآن الكريم إلى الحقائق الظاهرة التي نستفيد منها في العلم والعمل، فكلّ مسألة لا ينبي عليها عمل لا يستحسن الخوض فيها، والدليل من القرآن قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:

١٨٩]، فوقع الجواب بما يتعلّق به العمل؛ إعراضاً عمّا قصده السائل من السؤال عن الهلال: لِمَ يبدو في أول الشهر دقيقاً كالخيط، ثمّ يمتلئ حتى يصير بدراً، ثمّ يعود إلى حالته الأولى؟ ومن الأدلّة كذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٥١]، وقوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]. فحقيقة الأشياء وكنهها وماهيّتها لا يعلمها إلا الله سبحانه، ومن ثمّ كان تميُّز منهج البحث الإسلاميّ أنه اعترف بوجود الأشياء في عالميّ الغيب والشهادة، وجعل في إمكان الكينونة العارفة أن تستدلّ على وجودها. ولكن كنه الأشياء لا يقع في دائرة المعرفة الإنسانيّة؛ لأن الله يعلم أنّ معرفة الكنه لا تستلزمها مهمّة الإنسان في الحياة.

فالتعريفات قد تدرك بطريق تقريبيّ، كما لو طُلِب معنى الإنسان. فقيل إنه هذا الذي أنت من جنسه، فيحصل فهم الخطاب مع هذا الفهم التقريبيّ حتى يمكن الامتثال، وعلى هذا وقع البيان القرآنيّ، فيكون تفسير ألفاظ القرآن بمفرداتها لغة من حيث كانت أظهر في الفهم منها. فالصلة التي يدعو إليها القرآن بين العلم والمعرفة وبين الإنسان الذي يعرف ويعلم هي التي تهملها مناهج البحث التي يسمّونها علميّة في هذا الزمان، فتقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه، فالناس قطعة من هذا الكون، لا تستقيم حياتهم إلا حين تنبض قلوبهم بنبضه. والمنهج الإيمانيّ لا ينقص شيئاً من ثمار المنهج العلميّ في إدراك الحقائق المفردة، ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق بعضها ببعض، والبحث في الخصائص ربح للوقت وتوفير للجهد وزيادة للفائدة، فيكون الطريق قصيراً والنتائج مهمّة، وتوافي الجهد المبذول لتحصيلها.

ث- المعرفة والوجود:

يدعو القرآن الكريم إلى البدء من الوجود إلى المعرفة، وليس العكس، لأنه لا يوجد بحث مجرّد ولا معرفة مجرّدة، وإنما الإيمان قضيّة تظهر إلى الوعي من أعماق النفس. والعقيدة في مجتمع ما إنما تلقّن وتسيّر الحياة وفقها قبل طور الوعي الفرديّ للشخص، والإنسان يؤمن بعقيدة قبل أن يصوغ نظريّة في المعرفة. من هنا يكون دور المعرفة هو مناقشة قناعات الإنسان واعتقاداته، فما كان منها صادقاً أقره وما كان غير ذلك رفضه، وتتدخّل هنا عوامل البيئة والتربية، بالإضافة إلى الفطرة، فالمعرفة علم ووعي بالاعتقاد، والوجود أوسع من دائرة المعرفة ويتجاوزها.

فالمعرفة إدراك للمعتقدات وما تستلزمه في نظام الحياة. وأصولها في القرآن هي أصول للمعرفة الإنسانيّة، وخصائصها صادرة عن الوجود بكونه سبباً وهي المُسبِّب. فالوجود حاوٍ لدائرة المعرفة ويتجاوزها، والمعرفة علم بما يستلزم الاعتقاد من شريعة، ونظام يتسم به الوجود.

والقرآن الكريم أيقظ الفطرة البشريّة من أجل الإيمان بوحدانيّة الله في الوجود، وانفراده في الخلق له، فوجوده سبحانه والوجود بصفة عامّة أسبق من الإنسان وإدراكه؛ فالوجود مؤثّر، والمعرفة أثره الحاصل في النفس المدركة بعد مباشرة العمليّات الإدراكيّة. والقرآن يقرّر إثبات وجود خارجيّ عينيّ مستقل عن الذات العارفة وإدراكها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وأعقبها ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. فالآيتان تشيران إلى استقلال الأشياء من سماوات وأرض

وملائكة عن الإنسان؛ وأنها قد خلقت قبله، فكان وجودها سبباً للمعرفة، والموجودات الخارجيّة تنقسم بالنسبة إلى الإنسان إلى قسمين: موجودات في عالم الشهادة: وهي الأشياء التي تحيط بالإنسان في عالم الطبيعة، من جماد ونبات وحيوان وإنسان، ويدركها بحواسه. وموجودات في عالم الغيب: وذلك كاللوح المحفوظ والجنة والنار والعرش، والوحي الذي أنزل كان إيقاظاً للإنسان كي يقرأ باسم ربه الذي خلقه، وخلق الوجود الذي هو منه، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥].

فالوجود أعمّ من الإدراك المعرفيّ؛ لأن المعرفة والعلم ليسا إلا نوعاً من أنواعه، ووجود العالميْن: الغيب والشهادة، عقيدة رئيسة في القرآن الكريم، وهي من أقوى الأدلّة على نسبيّة المعرفة ومحدوديّة الإدراك كماً وكيفاً. فالله سبحانه يبيّن أنّ ما رزقه للإنسان إنما لأداء دور الاستخلاف في الأرض للوصول إلى تحقيق العبوديّة لله تعالى. وأعلى الناس معرفة هو النبيّ عليه الصلاة والسلام أمره الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦].

ثالثاً: ميدان المعرفة

جاء تقسيم المعرفة في القرآن على ميدانين، هما: الغيب والشهادة، وهذه الثنائيّة منسجمة مع الوجود، على مسلّمة مفادها أنّ الله تعالى يمثّل الطرف الأوّل في هذا الوجود، في حين تمثّل عناصر هذا الكون طرفه الثاني". وهذه الازدواجيّة مقاربة لإزدواجيّة الطاقات الحسيّة والطاقات العقليّة، ومشابهة لها

ازدواجيّة الفطرة الإنسانيّة في معرفة مجاليّ المعرفة، فمجال عالم الشهادة يكون بالإيمان بالمحسوس، ومجال عالم الغيب بالإيمان باللامحسوس، ومجال عالم الغيب معقول من حيث مبدأ التسليم بوجوده، ولكنه من ناحية أخرىٰ خارج عن نطاق العقل في كيفيّته وتفصيلاته، وهكذا نجد أنّ هذه المعرفة لهذين المجالين هي إيمان مزدوج. فالطاقة الحسيّة والعقليّة معاً؛ تمارس نشاطها في عالم الشهادة، ولكن الطاقة الحسيّة يقتصر عملها علىٰ ميدان المحسوسات، علىٰ غير الطاقة العقليّة. وقد تكلّم الله تعالىٰ عن الكون فبوصفه عوالم متعدّدة، كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]. ممّا يؤكد أنّ ثمّة عوالم كثيرة من حيث العدد، بيد أنها من حيث النوع عالمان؛ عالم غيب وعالم شهادة، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٩].

١ – العلاقة بين ميدان الشهادة وميدان الغيب:

لا شك أن إيراد أحد المصطلحين يستلزم الآخر عند كلّ المؤمنين بهما؛ لأنّ الإيمان بعالم الغيب يكسب المعتقِد له قوّة التماسك، واستمرار الأمل في الحياة وبعد الممات، واتساعاً لمصادر المعرفة وغاياتها. وآيات عالم الشهادة في القرآن الكريم تزوّد المؤمن بنوع من التماسك المتجلي في ميدانين، هما: الآفاق والأنفس؛ إذ جعل الله تعالىٰ هذين الميدانين من مستويات تجلية آياته، وإثبات نصره لأوليائه، ومواقع لتفكّر الإنسان وتدبّره كيما يطمئن بعالم الشهادة علىٰ صحّة ما ورد عن عالم غائب عنه.

فمرحلة الإيمان بعالم الشهادة تمثّل مرحلة وعي لفهم ما أمر الله سبحانه به، وذاك مقتضىٰ العقل والفطرة وعين الصواب. وحين يحدث ذلك الوعي؛ فإن

التوازن يتحقّق للإنسان على مختلف المستويات، ويتحقّق عندها منهج القرآن في أمره الناس بالنظر في سِيَر الأمم والأحداث في الأرض، كيما يروا عالم الشهادة؛ من خلال إيمانهم بحقيقة ما جاء في عالم الغيب، فالمنهج المعرفيّ القرآنيّ يرمي إلى إيجاد المتعلّم المستوعب لقوانين الشهادة المستمدّة من عالم الغيب؛ ليتحقّق الارتباط الإيجابيّ بين الغيب والشهادة، ولا يتمّ ذلك إلا بتخصيص قدر مناسب من مفردات المحتوى، مع الربط بينهما وبين عالم الغيب.

ممّا سبق يمكن إبراز التكامل بين العالمين: عالم الغيب وعالم الشهادة، في مظهرين: "الأول: وجود أدلّة عالم الغيب في عالم الشهادة. والثاني: بروز المخلوقات من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ثمّ تنتقل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب بانتظام واطّراد، فمفهوم الغيب والشهادة في القرآن هو المفهوم الذي يحدّد معنى الحياة والوجود وغايتيهما، وعلاقة ذلك بما وراء الحياة وما وراء الوجود؛ إذ إنّ مفهوم الغيب والشهادة هو الإطار الأشمل الذي يحدّد معنى العقل الإنسانيّ ودوره في الحياة الإنسانيّة وحدود هذا الدور ومجالاته.

٢- عالم الغيب

أ- التعريف اللغويّ للغيب:

(غ ي ب) أصل صحيح يدلّ على تستّر الشيء عن العيون. ويقال: غابت الشمس تَغِيب، غَيْبَةً، غُيُوباً، ووقعنا في غَيْبَةٍ وغَيَابة؛ أي هَبْطةٍ من الأرض يُغلب فيها ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]. والغيبة: الوقيعة في الناس من هذا، لأنها لا تقال إلا في غَيبة. ويدور معنى اللفظ على ما خفي وتستّر عن المُعَين، وكلّ ما اشتق منه يرجع إلى هذا الأصل؛ لذا سنجد

التعريفات الاصطلاحيّة تساير هذا.

ب- التعريف الاصطلاحيّ:

الغيب: الأمر الخفيّ الذي لا يدركه الحس، ولا تقتضيه بديهة العقل. والغيب المكنون والغيب المصون، هو السرّ الذاتيّ وكنهه الذي لا يعرفه إلا هو؛ وعند الأصفهانيّ: هو ما لم يقم عليه دليل، ولم ينصب له أمارة، ولم يتعلّق به علم مخلوق. وقيل: الغيب؛ هو الخفيّ الذي لا يكون محسوساً، ولا في قوّة المحسوس كالمعلومات ببديهة العقل أو ضرورة الكشف. وتطلق كلمة الغيب على كلّ شيء غاب عن إدراك حواس الخلائق كلّهم أو بعضهم، أمّا الله سبحانه؛ فلا شيء في الوجود كلّه هو غيب بالنسبة إليه، بل كل ما في الوجود هو من عالم الشهادة بالنسبة إليه.

ورد لفظ الغيب في القرآن ثلاثاً وخمسين مرّة، أربع مرّات منها بصيغة الجمع "الغيوب"، ومرّة واحدة بصيغة "غيبه"، قال تعالى: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل: ٢٠]؛ فاستُعمِل في كلّ غائب عن الحاسّة، وعمّا يغيب عن علم الإنسان ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل: ٧٥]. والغيب في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]؛ ما لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداهة العقول، وإنما يُعلم بخبر الأنبياء، وبدفعِه يقع على الإنسان اسم الإلحاد. قال تعالى: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]؛ أي لا يفعلن في غيبة الزوج ما يكرهه. ويقُسّم الغيب إلى أقسام، منها: قسم نُصب عليه دليل فيمكن معرفته، كذات الله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأحوال الآخرة، إلى غير ذلك، وقسم لا دليل عليه، فلا يمكن للبشر معرفته كما قال

تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقسم هو الغيب الإضافيّ: وهو درجتان؛ غيب مكانيّ وغيب زمانيّ، فالمكانيّ ما غاب عنك لبعده عن نظرك، أمّا الزمانيّ فماضٍ لم تدركه؛ إمّا وجوداً أو معرفة، ومستقبل آت، وحال وقوعه هو غيب في حقّ من كان غائباً عنها.

ت- خصائص الغيب:

منها أن عالم الغيب يمثل عالم اللامحسوس، وأن عالم الشهادة قد يكون ما فيه غيباً إضافيّاً؛ أي يتجزّأ حسب المضاف إليه، ومنه قسم عظيم من عالم الغيب خصّ الله عزَّ وجل به نفسه، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجنّ: ٢٦] غير قابل لأن يكون من عالم الشهادة. ومنه مفاتيح الغيب ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ومنه ما أطلع عليه من ارتضىٰ سبحانه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجنّ: ٢٧]؛ ومن صفات عالم الغيب استغراق علمه للجزئيات والكليّات معاً ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ: ٣]، فشمول علم الله للغيب كلّه صفة خاصّة به جلّ جلاله. ومن الغيب قسم قابل لأن يكون من عالم الشهادة؛ إذا تهيّأت للمخلوقات شروط مشاهدته.

ث- أدوات معرفة الغيب:

ينطلق منهج المعرفة في عالم الغيب من مدركات حسيّة؛ متجاوزاً الإطار الماديّ المحدود، ليتفاعل مع المبادئ الأوليّة للعقل، فيتمكّن من إدراك قضايا الغيب الكبرىٰ من ألوهيّة وربوبيّة وأسماء وصفات ونبوّة، علىٰ نحو من المعرفة العلميّة. وبإمكان العقل معرفة بعض الكليّات، كوجود الله تعالىٰ،

والنبوّة، بوصفها طريقاً إلى المعرفة الغيبيّة، ولكن أيّاً من الحسّ أو العقل لا يقوى على أن يصل إلى معرفة تفصيليّة عن عالم الغيب؛ لأن طريق ذلك هو الوحي فحسب، ولا طريق إلى المعرفة التفصيليّة بالحسّ أو العقل. فالخبر اليقين "الوحي" هو مصدر هذه المعرفة، وهذا ينعكس على المنهج المعرفيّ في الإسلام، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

حينما يدعو القرآن الناس إلى الإيمان بأصول الغيب يوجّههم إلى ذلك عن طريق البحث العلميّ، ويحثهم على استخدام أدواتهم المعرفيّة؛ للتفكّر والتدبّر في دلائل القدرة وسعه العلم الدالّة على قدرة الخالق، ويرشدهم إلى أنّ هذه الدلائل منبثّة في السماء والأرض، وفي أنفسهم، وفيما حولهم ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦- ٨]، ففي هذا إثارة للعقل الإنسانيّ بما يوصله إلى الاطمئنان للخبر المتواتر، ويقوده هذا إلى الركون لتفصيلات الغيب، وأنّ لا طاقة له بها؛ إذ لم يستوعب ما هو في مجاله في الشهادة، وعجز عن كثير ممّا هو فيها، فكيف به مع ما هو خارج عن نطاقه؟! وهذا يصدّق في الغيب الذي لا يصبح من عالم الشهادة، أمّا ما يمكن أن يدرك؛ فيصبح من عالم الشهادة، فالبحث فيه يطالُه الحسّ والعقل.

- مبادئ الغيب:

يمثل ميدان الغيب مصدراً لمعرفة يتلقّاها الإنسان بكونه مستقبلاً للمعرفة، ويمكن تحديد مبادئ عالم الغيب، في أن الوجود ذو غاية خيّرة،

وأن علاقات الوجود الكليّة غير خاضعة لإرادة الإنسان؛ وأن وجود الله تعالى يمثل أهمّ معطى في عالم الغيب بالنسبة إلى الإنسان، وأن الدار الآخرة تمثل محصّلة حسابيّة وجزائيّة نهائيّة لما قدمه الإنسان في الدنيا، وأن الإرادة الإنسانيّة وفق علم الله وأمره، وأن الهداية والضلال في حياة الإنسان مصير فرديّ يسبق في علم الله حين وهب الإنسان الحريّة في الاختيار؛ لذا لا معنى للتواكل والقول بالجبر ومظاهر العجز، وأن الوحي هو المصدر الذي يمدّ الإنسان بحاجاته المعرفيّة الغيبيّة، وأن العقل والوحي يتكاملان لتحقيق موقع الإنسان في عالم الشهادة، وسعيه إلى تحقيق الغاية منهما بعالم الشهادة، وعلى هذا الأساس يتمّ تصميم المنهج بعيداً عن الثنائيّات العقيمة للدين والدولة، والعقل والنقل، والأصالة والمعاصرة.

٣- عالم الشهادة:

الغيب في الاصطلاح خلاف الشهادة، والغيب ما غاب عن العيون، وإن كان محصلاً في القلوب. فميدان الشهادة يعقل بالتعاون مع الحواس، فيكون الكون ميداناً لعالم الشهادة في كلّ ما كان محسوساً. مع كون النظر إلى هذا الميدان مبنيّ على التكامل والتوازن؛ لأنّ الخلافة قائمة على مواجهة عالم الشهادة والتعامل معه بحسبانه ميداناً للإنجازات العظيمة؛ عن طريق تسخير القوانين المودعة فيه، من خلال عقلانيّة حاسمة قائمة على أساس السببيّة والتوافقيّة والتعامل المباشر مع أجزائه.

أ- التعريف اللغويّ:

شهد: (ش ه د) أصلٌ يدلّ على حضور وعلم وإعلام، لا يخرج شيء

من فروعه عن الذي ذكرناه. من ذلك الشهادة، التي تجمع الأصول التي ذكرناها من الحضور والعلم والإعلام. ومن أسماء الله الشهيد؛ أي الذي لا يغيب عن علمه شيء، والشهيد هو الحاضر، فالعلم إذا عُدّ مطلقاً كان الله هو العليم، وإذا أضيف في الأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد، والشهادة خبر قاطع تقول منه: شهد الرجل على كذا، فالشاهد هو العالم الذي يبيّن ما علمه، والمشاهدة: المعاينة.

ب- التعريف الاصطلاحيّ:

ورد لفظ شهد بمشتقاته مائة وأربع وعشرين مرّة، في سبعة أوجه، فالمشاهدة وردت في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ [البروج: ٧]؛ أي حضور. وتكون الشهادة إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، فهي خبر قاطع يؤدي معنى الإقرار والحجة، مع وجود العلم بذلك، ولكن الشهود بالحضور المجرّد أولى، والشهادة مع المشاهدة أولى، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ يعني مشاهدة بالبصر، وقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ تنبيهاً بأنّ الشهادة تكون عن علم وحضور، وقوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]؛ أي ما جعلتهم ممّن اطلعوا ببصيرتهم على خلقها، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤﴾ [البقرة: ٨٤]؛ أي تعلمون، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الرعد: ٩]؛ أي ما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدونه بهما.

ت- أقسام الشهادة:

عالم المحسوس في مجال الإدراك، هو ميدان الآفاق وميدان الأنفس؛ إذ

هما مشاهدان ومحسوسان، وورد ذكرهما في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصّلت: ٥٣]. نقل الشوكانيّ في تفسيره عن بيان معنى الآفاق جملة من كلام السلف: قال ابن يزيد: الآفاق آيات السماء. وقال قتادة والضحّاك: وقائع الله في الأمم. وقال عطاء: يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح وغير ذلك، " وزاد ابن كثير: الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، وقال الرازيّ: الآيات الفلكيّة الكوكبيّة، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والإظلال والظلمات، وآيات عالم العناصر الأربعة، وآيات المواليد الثلاثة.

ث- العلاقة بين ميدان الآفاق وميدان الأنفس:

هنالك علاقة جليّة بين الميدانين من خلال اجتماعهما في الذكر كلّما ورد أحدهما، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. والقرآن يرينا تكامل الميدانين؛ إذ إنّ الكون مسخّر للإنسان، نافياً بذلك نظريّة الصراع بين الإنسان والكون، ومنه نلمس الترابط في المنهج المعرفيّ؛ فمعرفة الميدانين تحدث تكاملاً للمعرفة، فالإنسان يسعى إلى الخلافة واستعمار الأرض بحثاً عن السعادة والرفاهيّة، وهذا يقتضي إدراك سبل تسخير الآفاق، وإدراك سبل فهم النفس الإنسانيّة وحاجياتها، وكلما توسّع الإنسان في فهم الكون زاد تسخيره له، فتطوّر الإنسان مبنيّ على قدرته وكفاءته في التعامل مع الكون والأنفس،

من خلال معرفته بمواطن الصلاح ومواقع الفساد، سعياً نحو الخير العامّ للإنسان كيما يرقى في المعرفة، ويعلو في درجات الإفادة ممّا توفّر له من طاقات في الآفاق والأنفس.

رابعاً: ضوابط المعرفة في القرآن الكريم

من خلال التأمّل في كتاب الله تعالى تظهر العناية بالتفكير المنضبط، في جانبيه الأخلاقيّ والعلميّ؛ ذلك أن الانضباط الخلقيّ في مسألة المعرفة لا يكفي، فلا يُقبل من الباحث أن يكون أميناً في نقله للمعلومات من غير أن يستكمل أجزاءها، ولا يكفي الانضباط العلميّ في مسألة المعرفة، فلا بُدَّ من ضوابط أخلاقيّة وعلميّة تَسْرِي على قواعد المعرفة جميعها؛ فالقرآن الكريم يهدي إلى محاسن الأمور في المعارف، ويَحُدّ الحدود التي تضبط المنهج المعرفيّ، كيما لا يشطط عن هدى الوحي الرامي إلى خير البشريّة في الدنيا والآخرة، فالقدح في الشرع، أو انتقاص العقل، كلاهما آفتان تنخر التطوّر المعرفيّ، والتكامل بين المصادر المعرفيّة. فكان لِزاماً جمع ضوابط تُيَسِّر البحث وتنزّهه من الأخطاء الهادمة لمنهجيّة البحث السليم.

١ – الضوابط الأخلاقيّة للمعرفة في القرآن الكريم:

تكمن أهميّة الكلام عن الضوابط الأخلاقيّة للمعرفة بوصفها محدداً معرفيّاً لمضمون العمل الأخلاقيّ. فالقرآن الكريم تبرز فيه القيم الأخلاقيّة على كونها "أحكاماً، أو مبادئ فطريّة في عقل الإنسان بعد ولادته، من خلال حركة الإنسان في الحياة، ولا يعني هذا أنّ الإنسان ينساق دائماً إلى امتثالها،

بل قد يخالفها، لكنه يبقى عالماً بها، شاعراً بمخالفته لها، وهذا من علامة فطريّتها، إذا كان غاية المعرفة تمكين الإنسان من الخلافة والعمارة، وفق منهج الله تعالى، فالقرآن الكريم هو مصدر للأخلاق والقيم التي يجب أن يسير عليها المستخلف؛ لتكون الأحكام الشرعيّة ضوابط وحدود للتعامل مع الآخر، والتعامل مع الكون بصوره المختلفة الجامدة والحيّة؛ كي لا يسعى الإنسان إلى خراب الكون والإفساد في الأرض بتحصيله لمعرفة من غير أخلاق، ولا ضوابط توجه تلك المعرفة نحو الصواب والخير.

أ- النهي عن التنازع:

هناك فرق بين التنافس والتنازع، فالأوّل محمود بنُبل المقصد؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، أمّا التنازع فنهايته التفرّق؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. فالخلاف قسمان؛ مأذون فيه، بل هو أحد أوْسِمة التراث العلميّ للمسلمين؛ وهو يمثل الثورة العلميّة والثروة المعرفيّة، وفيه تعمّق لإدراك الحقّ وتحصيل الفوائد العلميّة والعمليّة. وميدان هذا المسائل الاجتهاديّة التي يتسع لها الاختلاف، لكنّ القرآن الكريم قد نهى في غير ما آية عن مسلك بعض أهل الكتاب الذين تباينت أحكامهم لجملة من أصول الدين عندهم، مع توافر المعرفة على نحو بيِّن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥] فمن أخطر الإصابات الذاتيّة التي يمكن أن تلحق بالنخبة والأمة على حدّ سواء: انتقال علل التدين التي كانت سبباً في سقوط الأمم السابقة وانقراضها عندما افتقد

العلم أخلاقه وأهدافه الخيّرة، فتتحوّل من معرفة بالله إلى وسيلة باغية، وأصبح سبباً في تمزيق الأمة وتفريق الدين."

وقد عُلم من نبأ الأولين في الحياة الفكريّة والعقديّة أنّ أسباب الاختلاف كثيرة، وكلما خطا الإنسان خطوات في سبيل المدنيّة والحضارة؛ اتسعت فرجات الخلاف، حتى تتولّد المذاهب والطوائف والديانات، وغير ذلك، ومنشأ المذموم منه يكون في اتباع الهوى؛ "﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥]، فمن يهتدي بالوحي هو من يخالف الهوى ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾ [محمّد: ١٤] فالقرآن والسنّة هما مصدر المعرفة الرئيسَيْن. والخلاف الذي يصادم الوحي ويعارضه هو اتباع للهوى، إمّا لحبّ الدنيا، أو بغضاً لأهل الإيمان، وتكبراً واستعلاءً بما عنده من علم، قال على لسان قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. وهذا يعني أنّ المعرفة الإسلاميّة موصولة بالله تعالى، فهي ربانيّة المصدر، وربانيّة الوجهة والمسلك.

ب- الموضوعيّة:

نقصد بالموضوعيّة هنا تخلّي الإنسان عن عواطفه وانفعالاته التي لا يقوم عليها دليل نقليّ أو عقليّ تجاه مسألة من المسائل التي يحتاج فيها إلى اتخاذ قرار أو إصدار حكم؛ شريطة أن تكون القضيّة -موضع الطرح- ممّا تختلف فيه الأفهام ويتقبّل فيه النقاش، وهي على هذا معيار أساسيّ من معايير البحث، يقوم على الصدق والعلم والأمانة والبعد عن الأهواء الشخصيّة. فالإنسان عندما يكون بصدد التعامل مع فكرة أو معلومة، فإنّ الموضوعيّة

في مثل هذه المواطن مطلب عزيز جدّاً يصعب تحقّقه.

ورد اصطلاح "الموضوعيّة" في القرآن الكريم، وفق القواعد الشرعيّة التي وضعها الوحي لضبط إصدار الأحكام والتعامل مع الآخر. فالله تعالى ذكر أحوال الأمم، وبيّن ما لهم وما عليهم: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]، وبما أنّ المنهجيّة القرآنيّة دعت المسلم إلى التجرّد والقسط، مع بيان مخاطر ترك هذا الخلق النبيل، فالتحلّي بالموضوعيّة يجب أن يكون بمعايير ربانيّة لا مجال فيها للتشنّجات وردود الأفعال، ولا مكان للحظوظ البشريّة الدنيئة، والأهواء الأرضيّة الترابية، فلا يمكن أن يقال على من تمسّك بالمعيار الشرعيّ أنه غير موضوعيّ، فقد "أصبح الكثير منهم يُعرّف الموضوعيّة بأنها تجرّد الباحث من كلّ اعتبار قِيَميّ وعقديّ. ومن لوازم الموضوعيّة، "الأمانة العلميّة"، ومفهومها واسع يشمل قضايا عدّة، منها العلميّة بإثبات المقال للقائل، والمحاسبة على القول لا على لازم القول، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧].

ت- التحذير من الكتمان:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤]؛ فالكتمان محرّم على من وجب

في حقّه الجواب؛ لأن من العلم ما يجب كتمه في حقّ بعض الناس لدواعي عامّة بالزمان أو المكان، أو دواعي خاصّة، مراعاة لقدرة الاستيعاب وأجواء الإشكال كيما يفهموا عن المتكلم؛ فلا يخاطبوا إلا على قدر عقولهم كي لا يُكَذَّبَ الله ورسوله.

ث- عدم الانتقائيّة في المعارف:

قال تعالى مخاطباً أهل الكتاب: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وفي هذا تربية على توسيع المدارك وتنمية النظرة الكليّة لدى المتعلّم والباحث؛ لتجنّب الوقوع في النظرات التجزيئيّة والتبعيضيّة الضيّقة، ولن يتحقّق ذلك ما لم يسهم المنهج بعناصره وأطرافه جميعها في تقديم جملة من الخبرات والمعارف الهادفة إلى تحقيق هذه القيمة، غير أنّ التحذير من الانتقائيّة لا ينافي الدعوة للتصفية والتربية، والمراد منها نزع الأفكار المدخولة، وردّ الزائف منها.

ج- اجتناب الظنّ:

القرآن الكريم لا يقيم وزناً لمعرفة قائمة على الظنّ والتخرّص، مهما كثر أهلها، فبيّن أنّ الحقّ ليس بكثرة متّبعيه، والباطل لا يتجلّى بقلة مريديه ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨]، فهذه آيات بيّنات على أنّ المعرفة الحقّة تقتضي الدقّة لبلوغ اليقين.

ح- حظر التزييف والافتراء:

نبّه القرآن الكريم إلى ضلال أهل الكتاب المتمثل في التزييف والتلبيس وخلط الباطل بالحقّ، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران: ٧١]. وتوعّدهم فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة: ٧٩]؛ فالتحريف جريمة أخلاقيّة، ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨]؛ فتقرّر أنّ إقصاء المعرفة السليمة الصحيحة يتّبعه بالضرورة إحلال المعرفة المزيّفة؛ واستبدال الحقّ بالباطل. فحينما يكون المنهج المعرفيّ مبنيّاً في مصدره على حقائق يقينيّة نقيّة عندها ستكون النتائج سليمة معافاة من الأمراض الاجتماعيّة المتفشية كالغش والخداع والنفاق، والتجرُّؤ على الكذب، والتكلم بغير علم ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ [النحل: ١١٦].

٢- الضوابط العلميّة للمعرفة في القرآن الكريم:

أ- عدم قبول القول إلا بدليله:

يؤكد القرآن في منهجيّته العلميّة أهميّة التثبّت من صدق المعلومة التي تبنى عليها المواقف. ويكون التحقّق منه بالدليل النقلي أو العقلي، والمراد بالنقليّ ما جاء في كتاب الله أو في سنة نبيه محمّد ﷺ، أمّا العقليّ فما كان من المسلّمات العقليّة التي لا مجال لإنكارها، خاصّة إذا كانت هذه المسلّمات ممّا

يمكن للعقل أن يدركه. من هنا جاءت المطالبة بالدليل على صدق ما يدلي به الإنسان في مواطن كثيرة من كتاب الله تعالى، خاصّة في المواطن التي تحتاج إلى إثبات بسبب الخلاف فيها. وقد ورد مصطلح الدليل بألفاظ عدّة، منها العلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ وقال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤]؛ أي بقيّة من علم يوصل بها إلى صحّة ما تقولون، فإنّ الدعوى إذا لم يكن معها حجّة لم تغن عن المدعي شيئاً، وفي البرهان: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤]، وفي السلطان: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]. وفي الحجّة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] و: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]، وفي البيّنة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: ١١٠]، وفي البصيرة: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

ب- عدم خوض الإنسان فيما لا يعلم:

وهذا ضابط علميّ قرآنيّ لصاحب التفكير العلميّ الذي يعرف ذاته ويعرف قدراته وإمكاناته، فلا يتحدّث في قضيّة لا يعرفها، وسماه القرآن "خوضاً"؛ لكونه يورث الخلل في الحكم والتخبُّط في النتيجة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]. وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

ت- العناية بالمصطلحات وفهم لغة العلوم:

وهذا من أهمّ مستلزمات المنهج العلميّ في التفكير، ومن ضوابط المنهج المعرفيّ؛ لذا قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤]. فقد كان المسلمون يقولون حين خطابهم الرسول عند تعلّمهم أمر الدين "راعنا"؛ أي راع أحوالنا، قاصدين المعنى الصحيح، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً.

فنهْيُ الله المؤمنين عن هذه الكلمة؛ سدّاً لهذا الباب، فيه. وفيه هداية إلى الأدب، واستعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلا الحسن وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع من التشويش، أو احتمال لأمر غير لائق. فاللفظ حين يُقال تكتفنه ظروف، وملابسات، وبيئات، وأزمان، وأفكار، ومواقف، وتخصّصات، هي التي تحدّد المراد منه في غالب الأمر، فإذا أخذ مجرداً أوقع صاحبه في الخلل والتخبّط، وأوداه في مغبّة سوء الفهم. والمصطلح يفهم بما تواضع عليه أهله، والعناية بالمصطلحات جزء من ضابط علميّ يوسم به الباحث المسلم؛ ألا وهو التثبت قبل إصدار الحكم، وفهم اللغة التي يتحدّث بها الآخرون.

ذلك أنّ الناس لهم من ألفاظهم مرادات حيّة ينطقون بها، وليس من المنهجيّة العلميّة التي جاء بها القرآن الكريم أن يهاجموا، أو تصدر عليهم

الأحكام قبل التثبت من مصطلحاتهم التي يتفوّهون بها، لكون اللسان والنطق مغرافاً لِما في ضمير المتحدّث، "كما أنّ المتخصّصين في جوانب المعرفة المختلفة لهم مصطلحاتهم الخاصّة بهم عندما يتحدّثون، ومعرفتها أمرٌ مُهمّ، " فلا يعترف لأيّ كان بالعلم ما لم يضبط لغته؛ أي مصطلحات ذلك الفن، وليس بغريب أن "تؤدّيَ المصطلحات دوراً أساسيّاً ومحوريّاً في أشكال الإبداعات الفكريّة جميعها، وما يتّصل بها من محاورات ومطارحات، وكلما اتسعت الرؤية وتشعّبت منافذ الحديث وتعقّدت القضايا ازدادت خطورة المصطلحات؛ حيث يمكن لها أن تجلّي الحقائق وتختزل المعاني ببراعة لتركّزها في الذهن، وتضبط قواعد الحوار الفكريّ وآدابه، كما أنها من جانب آخر يمكنها أن تزيد الإشكاليّات تعقيداً، وأن تكون عاملاً من عوامل تغييب الرؤية واضطراب قواعد الحوار الفكريّ وآدابه، " بل إنّ من خطرها -في زمن الصراع العقديّ والفكريّ والثقافيّ بين الأمم- أنها يمكن أن تزاحم المصطلحات الأصيلة للأمة المسلمة في شتىٰ مناحي حياتها؛ تمهيداً لترحيل ما تعبّر عنه من مُعتقد، أو فكر، أو خُلق إسلاميّ أصيل.

ث- التناسب بين المجال المعرفيّ والمنهج العلميّ المستخدم:

لأهميّة هذا التناسب جاء مثال له في القرآن ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف: ١٩]. فقد خرج المشركون على الناس بمنهج معرفيّ مفاده: أنّ الملائكة إناث، وفي مواطن أخر يقولون بأنهم "بنات الله"! كما حكىٰ الله ذلك عنهم بقوله: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الطور: ٣٩]، فجاء الردّ رائعاً جليّاً في قول الحقّ جلّ

ذكره: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]. ومعنى ذلك أنّ هذا المنهج المعرفيّ الذي يزعم أنّ الملائكة إناث وأنهم بنات الله، يحتاج إثباته إلى مجال علميّ دقيق يوصل إلى نتيجة علميّة دقيقة، ولا يمكن أن يكون هناك مجال علميّ غير المشاهدة ليدور الأمر بين واحد من الاحتمالين: إمّا أنّ هؤلاء كانوا مع الله ورأوا خلق الملائكة، وإمّا أنهم لم يكونوا مع الله ولكنهم رأوا الملائكة بعد ذلك. الجواب: لا، فيكون كلامهم عبارة عن تخرّصات وظنون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١]؛ فافتراؤهم كان بغير علم ولا منهج علميّ يناسب مجالهم المعرفيّ؛ لأنّ ذلك من عالم الغيب الذي لا يملكون أدوات معرفته، وقياسهم بالشاهد على الغائب باطل هنا، بل حتى قياس الأولى كان استعمالهم له فاسد، فنسبوا لأنفسهم الكمال ولله تعالى النقص من حيث لا يعلمون، معتقدين التقديس والتنزيه.

فضرورة تناسب المجال المعرفيّ مع المنهج يؤكد عليه الكثير بقولهم: "ليس هناك علم أو تقدّم علميّ إلا عن طريق البحث، وتقدّم البحث العلميّ يعتمد على المنهج، يدور معه وجوداً وعدماً، صدقاً وزيفاً."

جـ- التناسب بين المجال المعرفيّ وطاقات العقل وقدراته:

فمن المعلوم بالضرورة أنّ طاقة العقل لا تحصي كلّ شيء، وأنّ له حدوداً لا يدركها. هذا يكون مع مطلق العقل، معَ ثبات تفاوت إدراك العقول من الأدنى إلى الأعلى؛ لذا بيّن الله تعالى أن ذاته العليّة، والروح،

وقيام الساعة، وعالم الملائكة، ونزول الغيث، وما تغيض الأرحام، وما يتعلّق بكسب الناس وآجال الأمم والأفراد زماناً ومكاناً ممّا لا يطيق العقل البحث فيه؛ لأنه لم يُكلَف ولم يهيّأ فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]. فعلى كلّ مسلم أن يَزُم العقل بزمام الدين، وألا يبدّد قدرات العقل وطاقاته فيما لا يتحقّق له من ورائه فائدة، بل عليه أن يبحث فيما حدّده له خالقه، وعليه أن يركّز بحثه في حدود طاقاته وقدراته وفق الضوابط الشرعيّة التي نصّ عليها كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، ليسلم من الزلل وينتفع ممّا يبحث فيه في أمور دينه ودنياه.

حـ- الإحاطة بالقضيّة والحصر:

إصدار الحكم على قضيّة ما يقتضي دقّة التصوّر لها، وهذا مبني على الإحاطة بجوانبها؛ كي لا تنتقض الأحكام بوجود ما هو خارج عن التصوّر الأوليّ؛ لذا يُعدّ التفكير الشموليّ ضرورياً لجمع أجزاء القضيّة وحصرها تحت حكم واحد شامل أجزاءها كلّها. "والمقصود بالتفكير الشامل هو ذلك الأسلوب الذي يتناول الظاهرة من جوانبها جميعها ويتحرّى أجزاءها جميعها وما يتعلّق بها". فاتخاذ موقف أو إصدار حكم على فكرة أو شخص أو جماعة أو مذهب من خلال نظرة جزئيّة يجعل القرار والموقف والحكم نوعاً من

الظلم والتَّجني. وهو خلاف لأمر الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

وتشنيع القرآن الكريم على أصحاب هذا المنهج واضح في سورة يونس ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩]، فالظاهرة مقرونة بالحكم في القرآن الكريم؛ لذا كان إدراك أجزائها ضروريّاً ليضبط الحكم الصادر عليها، فبعد بيان الأحكام كما في سورة النساء أعقب ذلك بحكم موضوعيّ، حاصله التعريف بالغاية والفائدة من تطبيق الأحكام والأوامر الإلهيّة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

ينبني على الإحاطة بالقضيّة من جوانبها جميعها، واشتمال الحكم لصورها كلّها؛ ألا يعمم على غير أجزائها، وما لا يدخل في دائرة تصوّرها، فالحكم يدور مع العلّة وجوداً وعدماً، والعلّة منوطة بصورة المسألة؛ لذا كان الاستثناء في الأحكام آكد حال اختلاط الصور وتقارب المسائل، فالقاعدة تحصر ما كان تحتها للتماثل، والحكم يشمل أفرادها جميعها، لكن ما خرج عنها يستثنى من الحكم، هذا الضابط العلميّ القرآنيّ يقصر الأمر عند وقوعه على صاحبه، والأفعال على ما شابهها؛ لذا نجد أنّ الله تعالى يبيّن لنا حال القضاء بين الناس، أو إصدار الأحكام عليهم حال التعامل أن تلحق الجريرة بصاحبها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، فليست زلّة العالم مسوِّغاً لزَجٍّ مثله معه، ولا انحراف

فرد من طائفة أو فرقة أو ملّة دليلاً على انحراف أصحابه، لكن الحكم يتعلّق بعلته ويثبت على صورة قضيّته، وأصحابه يحملون وزره ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس: ٤٠]، فلم يعمّم على الجميع لأنّ من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن الكريم، وحين ذكر المنافقين كان بصيغة التبعيض.

- تلقّي المعرفة من مصادرها الصحيحة، مع الانفتاح على خبرات الآخرين:

تلقّي المعرفة المتكاملة يجب أن يكون من مصادرها، فلكلّ معرفة وحييّة -على اختلاف فروعها- مصادرها التي تؤخذ منها، ولكلّ معرفة بشريّة -على اختلاف فروعها- مصادرها. فنجد القرآن الكريم يرشد إلى المصادر حال الاستفسار ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧]. فإن كانت المعرفة ماديّة كان العود إلى أهلها فيها أحقّ من غيرهم، والتفكير في مجالها بأدواتها ومناهجها التي تفي بالغرض للحصول على نتائج صحيحة. فأهل الذكر هم أهل التخصّص في أيّ جانب من جوانب المعرفة، ما دامت منافع معرفتهم مشروعة، فكان الوقوف على حضاراتهم وعلومهم ومعارفهم المتراكمة من طرائق الأخذ عنهم؛ لتوسيع المدارك والإفادة من الإبداعات ما لم تعارض نصّاً أو تنافي شرعاً للمسلمين.

فترى في القرآنِ النبيَّ الرسولَ وكليمَ الله موسى عليه السلام يتعلّم ممّن هو أقل منه شهرة ومنزلة؛ الخضر عليه السلام ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦]، وابن آدم العاقل يتعلّم من الغراب غير العاقل ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]، بل إنّ المولى سبحانه أقرّ كلام الملكة بلقيس قبل إسلامها، فحكى عنها: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤].

فالمنهجيّة العلميّة الواعية تلتقط الصواب من كلّ واحد، ما دام خيراً لا يصادم ما هي عليه، بغض النظر عن صفات قائله وخصائص مصدره، لكن يجب التأكيد أنّ الأخذ من الآخر له ضوابطه، فمخاطر الأخذ عن الآخر لا تقودنا إلى "عدم القدرة على التمييز بين الغزو الثقافيّ والتبادل المعرفيّ... وإقامة هذا الحاجز من تخوّف الغزو الثقافيّ حرم العقل المسلم الكثير من المعارف وارتياد الآفاق التي تمكّنه من اختصار فجوة التخلّف، والمساهمة في التغيير الحضاريّ." فالقرآن الكريم يقرّب معارف السابقين، ويدعو إلى إقامة وحدة لمعارف الوحي، معَ اعتماده أسلوبيّ التصديق والهيمنة، وذلك بأن يوافق كلّ معرفة فيها لم يطرأ عليها تحريف أو انتحال "من غير أن يعني ذلك التصديق أو تلك الهيمنة التوقيع على كلّ معرفة فيها، بقطع النظر عن سلامتها من الخطأ، بل يُعمِل فيها منهجه التقديريّ التمحيصيّ كي يتميّز السليم فيها من المنحرف، في صورة عمليّة استرجاعيّة شاملة لذلك الميراث تتضمّن نقده وتحليله وتطهيره ممّا ألحق به من إضافات واجتهادات تتنافى مع مضمونه."

فالقرآن نزل مكملاً وناسخاً لما قبله ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]. وفي هذا إقرار بمبدأ التراكم المعرفيّ، وأن يبني اللاحق معارفهُ على ما ترك السابق. كما أنّ فيه إثبات الهيمنة والتصديق على جميع ما سبقه من معارف مصدرها الأصليّ هو الوحي لأنه للناس كافة، فكانت تشريعاته وعقائده حكماً على غيرها، ومعياراً يصدق به غيرها؛ لأنه أصول ثابتة راسخة في درجات عليا من اليقين.

نستفيد من هذا المنهج في تعاملنا مع ميراث الأمم الغابرة، وميراثنا العلميّ، فلا ريب في أنّ فيها الصواب والخطأ، فهي اجتهادات رامت بلوغ الحقيقة فأنتجت ميراثاً ضخماً ثقل حمله على من خلفهم. فالقرآن وحي ربانيّ وما ترك علماؤنا اجتهاد إنسانيّ على هدى الوحي، فما كان على وِفاق معه قبلناه وما جانبه رددناه.